



الخميس 25 مايو 2006 03:01 م

كتب الأستاذ الهضيبي مقاليتين كانتا من أروع ما كتب عن الإمام الشهيد حسن البنا، فيهما عاطفة جياشة وروح مُحلِّقة، ومشاعر رقيقة سامية وفهم عميق للدعوة إلى الله وأصولها وقواعدها، تُعبّر تعبيرًا دقيقًا عمّا في شخصية الأستاذ الهضيبي من صفاتٍ فذة بنفس القدر التي تُعبّر فيه عمّا في شخصية الإمام البنا من عبقرية نادرة.

1- المرشد المُلهم

"عرفته أولَ ما عرفته من عرسِ يده، كنتُ أدخلُ المدن والقرى فأجدُ إعلانات عن (الإخوان المسلمين) دعوة الحق والقوة والحرية، فجلتُ أنها إحدى الجمعيات التي تُعنى بتحفيظ القرآن، والإحسان إلى الفقراء، ودفن الموتى، والحثُّ على العبادات من صومٍ وصلاة، وأن هذه قصارها من معرفة الحق والقوة والحرية.. فلم أحفل بها.

كثير هم الذين يقرءون القرآن دون أن يفقهوه، ودون أن يعملوا به، وأكثرهم الذين يصلون ويصومون ويحجون دون أن يكون لذلك أثر في نفوسهم، والإحسان إلى الفقراء كثيرًا ما يوضع في غير موضعه.. ولم أحاول- كما هي العادة- أن أعرف شيئًا عن (الإخوان المسلمين).

ثم التقيتُ يومًا بغنية من الريف أقبلا عليّ- على غير عادة الأحداث مع من هم أكبر منهم سنًا ومركزًا- يحدثونني، فوجدتُ عجبًا؛ فنية من الريف، لا يكاد الواحد يتجاوز في معارفه القراءة والكتابة، يحسنون جلوسهم مع من هم أكبر منهم في أدبٍ لا تكلف فيه، ولا يحشون بأن أحدًا أعلى من أحد، ويتكلمون في المسألة المصرية كأحسن ما يتكلم فيها شاب متعلم منقف، ويتكلمون في المسائل الدينية كلام الفاهم المتحرر من رق التقليد، ويبسطون الكلام في ذلك إلى مسائل مما يحسه الناس من صرف المسائل الدنيوية.

ويعرفون من تاريخ الرسول- وتاريخه هو تاريخ الرسالة- ما لا يعرفه طلاب الجامعات.. فعجبت لشأنهم وسألتهم: أين تعلمتم كل ذلك؟! فأخبروني أنهم من (الإخوان المسلمين)، وأن دعوتهم تشمل كل شيء، وتُعنى بالتربية والأخلاق والسياسة، والفقير والغنى، والاقتصاد وإصلاح الأسرة، وغير ذلك من الشؤون صغیرها وجليها.. من ذلك الوقت تنبعت حركة (الإخوان المسلمين)، وصرت أقرأ مطبوعاتهم، وأتصل بهم دون أن أعرف الداعية إلى ذلك، ولكنني عرفته من عرسِ يده قبل أن أعرف شخصيته.

كان يوم خرجت أنا وبعض زملائي لمشية العصر على حافة النيل، فوجدنا جفًا من الجوّالة؛ سألناهم عن شأنهم، فعلمنا أن "حسن البنا" سيلقي خطبةً في حفلٍ الليلة، فوافينا الحفل وسمعنا "حسن البنا"..

لقد تعلقنا بأبصارنا به، ولم نجد لأنفسنا فكاً من ذلك، وخلصنا من نور أو "مغناطيساً" بوجهه الكريم، فيزيد الانجذاب إليه، خطب ساعة وأربعين دقيقة، وكان شعورنا فيها شعورَ الخوف من أن يفرغ من كلامه، وتنقضي هذه المتعة التي أمتعنا بها ذلك الوقت.

كان كلامه يخرج من القلب إلى القلب شأن المتكلم إذا أخلص النية لله.. وما أذكر أنني سمعت خطيباً قبله إلا تمنيت على الله أن ينتهي خطابه في أقرب وقت.. كان كالجداول الرقراق الهادئ، ينساب فيه الماء، لا علو ولا انخفاص، يخاطب الشعور فيلهمه، والقلب فيملؤه إيماناً، والعقل فيسكب فيه من المعلومات ألواناً.

انقضى وقت طويل دون أن أتقني به، ولما أذن الله بذلك التقينا.. فإذا تواضع جُم، وأدب لا تكلف فيه، وعلم عزيز وذكاء فريد، وعقل واسع مُلمُّ بالشئون جليها وحقيرها، وآمال عراض.. كل ذلك يحقُّ روح ديني عاقل، لا تعصب فيه ولا استهتار.. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسْمًا﴾ (البقرة: من الآية 143).

إنه كان مُلهماً، وأقسم أنني التقيت به وعاشرته، فما سمعتُ منه كلمةً فيها معجز في عرض أحد، أو دين أحد، حتى من أولئك الذين تناولوه بالإيذاء والتجريح في ذمته ودينه، وكان في ذلك ملتزماً حدًّا ما أمره الله.

هذا هو "حسن البنا" الذي قتلوه.. لقد قتلوا أخطر داعيةٍ ظهر على الأرض منذ قرون، والآل فإن العرس الذي عرفته فيه "حسن البنا" قد نما وترعرع، وصارت دعوته إلى كتاب الله مستنقراً في القلوب، وصار تلاميذه يعلمون الناس ما علم، ويلهمونهم ما ألهم، وزاد عددهم على البأساء والضراء حتى أصبحوا أقوى جدلاً مما كانوا، وأعرف بشئون الحياة، وأصبر على المظالم، وأعلم بأن أعداء دعوتهم أكثر من أنصارهم، فأعدوا أنفسهم لكفاحٍ طويلٍ في سبيلها.

ولقد صار (الإخوان المسلمون) اسماً لا يعبر عن منظمة في مصر؛ وإنما يعتبر عنواناً لنهضة الإسلام وبعثه وحيويته في جميع البلاد الإسلامية من المحيط إلى المحيط.. فاسم (الإخوان) في إندونيسيا والباكستان، وكل البلاد العربية، وصارت دعوتهم رعباً للمستعمرين وأنصار المستعمرين، والمنافقين والظالمين؛ لأن الباطل يفرغ من الحق أينما كان، وحيثما وجد.

2- حسن البنا .. الداعية المربي

"كنا في القطار بأقصى الصعيد فأشار أحد رفقائي إلى الجبل فرأيت ناساً يصعدون أو ينزلون كأنهم من فرط ارتفاعه في أحجام النمل- وقال: هنا صعد حسن البنا وصعدنا معه ولقينا من المشقة حتى وصلنا إلى قوم كأنهم من طول ما احتبسوا في هذا المكان فيهم من الإنس جفوة- وجعل الأستاذ الإمام طيب الله ثراه ورضي عنه وأرضاه في الجنة- يؤنس من وحشتهم ويرقق من طباعهم ويدعوهم إلى كلمة الله وكتاب الله وسنة رسول الله.

وتحت شجرة قليلة الرواء كأنها أسنت قبل الأوان من كثرة ما طمئت قال آخر: هنا نزلنا من الأوتوبيس نقصد إحدى القرى ونظرت فإذا لحية الأستاذ الإمام قد صارت بيضاء مما علاها من التراب وملابسه قد اختفى لونها لما غشيها لا أقول من وعناء السفر- فالوعناء شيء قليل-، وفتحنا الشنطة وأخرجنا منها الفرشاة وجعلنا نزيل الغبرة التي لحقتنا ونصلح من هندامنا ثم مضينا إلى القرية ندعو أهلها إلى كلمة الله وكتاب الله وسنة رسول الله.

ثم وصلنا إلى إحدى المحطات ولعلها "إدفو" فقال آخر: إن الأستاذ الإمام بات على كرسي أمام هذه الخمارة، وذلك أن أحد الأشخاص دعاه لافتتاح شعبة فكتب إليه بأنه حاضر في قطار كذا وكان الخطاب لم يصله، ولم يجد في المكان من الأيقاظ إلا صاحب الحانة يهم بإغلاقها ففرق له وأعطاه كرسيًا يبيت عليه حتى الصباح وأغلق حانته وأنصرف، وفي الصباح ذهب الأستاذ إلى القرية يدعو أهلها إلى كلمة الله وكتاب الله وسنة رسول الله.

وانتقلنا إلى الوجه البحري وجينا قرى إحدى المديرية في أسبوع فما وجدنا قرية إلا وصل إليها الأستاذ على غير ما وصلنا، فقد وصلنا في سيارات تنقلنا من مكان إلى مكان تختصر الوقت ونقرب المسافات، ومهما لقينا في ذلك من مشقة فإنها لا تُقاس بالمشقة التي لقيها الأستاذ الإمام حيث كان يصل إلى هذه القرى سيرًا على الأقدام أو يركب الدواب، قرى سحيقة بعيدة عن العمران نسيها الناس ونسيتها الحكومات حتى طاف بها طائف من رحمة الله ونوره فدعاها الداعية إلى كلمة الله وكتاب الله وسنة رسول الله.

هكذا فعل حسن البنا بث دعوته ونشر راية القرآن وربى جيلًا على الإيمان والفضيلة والطهر والعفاف والعزة والصدق والأمانة- ربى الجيل فردًا فردًا وجعل كل فردٍ مدرسة لمن يأتي بعده، وأحيا نفوسًا كاد الجهل يقتلها وأوجد أبطالاً في الحرب يغدون دينهم وأوطانهم بأرواحهم- بايعوا الله على ذلك فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً.

وهكذا الدعوات تنشأ في قلب فرد ثم في اثنين ثم في ثلاثة إلى أن يعم نورها القلوب فيستضيء الناس به ويقبلون عليه ويأخذ كل نصيبه منه وهكذا، ولا يمكن أن تبدأ الدعوات بحشد الناس في اجتماعات، ولا بأن يقول لهم الناس كونوا على فكرة فيكونون.

كانت الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسول الله قد ملكت عليه نفسه وعقله فضحى لها وعانى في سبيلها ما ذكرت نموذجاً منه في رحلاته، لم يكن كالزعماء الذين يجلسون في بيوتهم أو على مكاتبهم وينادون بالأفكار والآراء ويحسبون أنها استهوت نفوسهم وأن الدنيا قد دانت لهم بما تجمع حولهم من جموع لا يحصى عددهم حتى إذا ألمت بهم ملة لم يجدوا أحداً لأنهم في الحق لم يجتمعوا على حق وإنما جمعتهم الشهوات والمنافع وجمعهم الهوى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ (الجاثية: من الآية 23).

ولم يكن كالزعماء لا يذهبون إلا إلى العواصم في القطارات الفاخرة؛ حيث يلقون من أنواع التكريم ما يُزجيه لهم المنافقون، لكنه كان يبحث عن القلوب المؤمنة المخلصة الثابتة على إيمانها الوفية في إخلاصها، ويعلم أن العبرة ليست بكثرة العدد وإنما العبرة بعدد المؤمنين الذين تندك الجبال وتزول ولا يرولون عن عقيدتهم ولا ينزلون عن حكم ربهم.

كان يحترق في الدعوة وبؤيتها من وقته ونفسه وما يكسبه من مالٍ ما جعله مثلاً في التضحية والبذل- التضحية بالنفس والتضحية بالمال- كل ذلك حباً في الله وابتغاء مرضات الله- لم يسترح ساعة ولم يقن ثروة ولا كان له عرض من أغراض الدنيا إلى أن لقي ربه راضياً مرضياً، وذلك جزاء المنقين".

المرجع: حسن الهضيبي- حياته وأثاره- عبد الحليم الكنانى.

<https://ikhwan.online/article/20689>